كلمة رئيس مجمع اللغة العربية

في حفل تأبين المرحوم الدكتور عادل العوا

الدكتور شاكر الفحام

-١-

يتملّكني أسىً بالغ وحزنٌ عميق لفقدنا الأستاذ الكبير والعلم الشامخ الدكتور عادل العوا، الذي فارقنا أشدَّ ما كنا تعلقاً به ومحبة له، رحمه الله الرحمة الواسعة، وجزاه الجزاء الأَوفى في جنة الخُلد التي وُعد المتقون، مع الذين أنعم اللهُ عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسُن أولئك رفيقا.

فما كان قيسٌ هلكُه هلكَ واحدٍ ولكنه بنيان قومٍ تهدَّما

* * *

يرحمكَ اللهُ من أخي ثقةٍ لم يكُ في صفو ودّه كَدَرُ

عُرف الدكتور عادل العوا رحمه الله منذ مطلع حياته الدراسية بالجدّ والإكباب على المطالعة وصحبته الكتاب. أنهى دراسته الثانوية عام ١٩٣٨م وكان في السابعة عشرة من عمره، وسافر في خريف العام نفسه في بعثة حكومية إلى فرنسا لمتابعة دراسته، فدرس في كلية الآداب بجامعة باريس (السوربون)، وحصل على الإجازة، ثم نال الدكتوراه (آداب – فلسفة) من

جامعة باريس في حزيران عام ١٩٤٥م[١].

وعاد إلى سورية ليبدأ حياته بالتدريس في المدارس الثانوية وفي دار المعلمين بدمشق حتى افتتحت كلية الآداب والمعهد العالي للمعلمين بجامعة دمشق سنة ١٩٤٦م فسُمّي فيهما أستاذاً، وفي عام ١٩٤٩م أصبح أستاذاً في كلية الآداب، ورَأَس قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية منذ ذلك الحين حتى إحالته على التقاعد بعد التمديد عام ١٩٩٠م.

وقام الدكتور العوا إلى جانب عمله الجامعي بأعمال علمية أخرى، وشارك في مؤتمرات ودورات علمية وحلقات دراسية وحاضر ودرّس في عدة جامعات. ولكن عملَه الأساسيَّ الذي استفرغ مجهودَه، ووقف عليه طاقاته العلمية إنما كان في قسم الدراسات الفلسفية الذي أولاه كل عنايته، وقدّم له خيرَ ما يُقدَّم.

–٢–

لقد بدأ الدكتور العوا حياته التدريسية، وقد استعدّ وتأهب، وروّى نفسه من العلم والمعرفة، ولاسيما علوم الفلسفة. وكانت تملأ نفسه القيمُ والمثل، فهو صاحب رسالة يريد أن يؤديها أحسن الأداء، وكان يتطلع إلى التعاون والتعاضد مع زملائه الجامعيين والنخبة من المثقفين في ميادين الثقافة والعلم والمعرفة، ليتكاتفوا في العمل معاً على إرساء نهضة علمية تهيئ للأمة أن تبدأ حياة جديدة تواكب فيها مسيرة العلم العالمية، وتشاركُ في بناء الحضارة الإنسانية.

(١) نُشرت رسالة الدكتوراه ببيروت (بالفرنسية) عام ١٩٤٨م بعنوان: «الفكر الانتقادي لجماعة إخوان الصفا».

والتفت إلى العمل الجادّ فأخذ يؤلف الكتب في علوم الفلسفة، ويضمُّ إليها ما يختاره من ترجمات لكتب غربية تندرج في سياق الخطة العلمية التي يرمي إلى تحقيقها. كان يتابع العمل دون كلال أو ملل، ليقدم لطلابه وللأجيال الناشئة العلوم والمعارف، وجلُّها في علوم الفلسفة وتشعباتها، يعرضها بأسلوب جميل ميسر، ليحبّبها إليهم، ويستثير حماستهم لمتابعة القراءة، وحب البحث، كي يكونوا النواة الصالحة للنهضة العلمية التي كان ينشدها ويتطلع إليها هو وإخوانه من الأساتذة والمفكرين.

ومن كلماته: «وحدةُ الثقافة جامع فكري بين الأدباء الموجهين. والثقافةُ هي معرفة ومسؤولية في آن واحد. وأكثرُ المثقفين يكتفون بالجانب الأول: المعرفة، وهو الجانب النظري... أما الناحية الثانية ناحية المسؤولية فإن الشعور والالتزام الذي ينادي به كثير من المثقفين في الوقت الحاضر، يُلزمهم بأن يحققوا أفكارهم أو يسهموا في تحقيقها، بنشرها من جهة والدفاع عنها من جهة ثانية كيما تخرج إلى حيّز الفعل».

ويقول: «لن نألو جهداً مهما غلا لخدمة هذا الجيل الصاعد الذي نرجو أن يكون لَبِناتٍ صالحات في صرح أمتنا لتؤدي رسالتها نحو الإنسانية».

ومن أقواله: «أملي بإصلاح بعض النواحي الاجتماعية كبير، وأرجو أن أوفق في العمل أنا وإخواني على ضمّ شتات الشباب العامل».

-٣-

وفي الحق أن الدكتور العوا كان يواصل عمله الذي ندب نفسه له بهمة وعزيمة، وكان حريصاً على إتقان ما أُسند إليه. وإذا تأملنا ما أعدَّه من مؤلفات وترجمات أدركنا الجهود الطيبة التي بذلها حتى تحقق له ما تحقق. لقد أغنى المكتبة العربية بزهاء ثمانين كتاباً من مؤلفاته وترجماته في علوم الفلسفة

وتشعباتها، كانت في غاية الدقة والجِدّة، نشرها على مدىً يجاوز أربعين عاماً، ودلّت على ما يتمتع به الأستاذ الكبير من ثقافة واسعة، وعلم غزير، وحسنِ محاكمة، وتجويد في العرض، وقدرة على الأداء، مما يقرّبها إلى قُرائها، ويدنو بها إلى الكمال.

وإن من يتتبّعُ الطريق التي سلكها في تآليفه وترجماته يدرك أن موضوعات أساسية كانت تشغل فكره، وتستأثر بجلّ اهتمامه، وتُملي عليه الخطة التي نهجها. وقد صنّف كتبه تصنيفاً تقريبياً بحسب المضمون، فرتَّبها في خمسة مجالات هي:

١- الحضارة والمدنية ٢- الفلسفة عامة ٣- الأخلاق

٤- فلسفة القيم ٥- الفكر العربي.

وهذا التصنيف يعدّد فيه الكتب التي تمّ نشرها ما بين سنتي ١٩٥٧– ١٩٩٥م.

كان أبرز ما يرنو إليه الدكتور عادل ويعملُ على تحقيقه في دراساته ومحاضراته ومحاوراته أن ينشرَ العلم والمعرفة، ويغرِسَهما في نفوس الجيل الجديد. فالعلم هو الوسيلة الأولى للرقي في مدارج التقدم، واللحاقِ بالركب الحضاري العالمي. وكان قد شاهد في الغرب كثرة المذاهب الفلسفية، والايديولوجيات المتعارضة التي واكبت انحسار الحرب العالمية الثانية، وما خلّفته من حيرة للعقول الشابة، وانتهى إلى ما انتهى إليه مفكرو الغرب في تلك الحقبة من أن ميدان الحضارة وحده هو ميدان التقاء العقول. ومن هنا جعل تلاحم مفهومي الحضارة والمدنية موقفاً لازمه في كل نشاط ثقافي أو تعليمي، ليضمن لشباب الجيل الالتقاءَ في ميدان واحد، وإن تباينت معتقداتهم السياسية.

وقد شغلت المسألةُ الأخلاقية جانباً طيباً من نشاط الأستاذ العوا فعُني

بها أتم عناية، وترك مؤلفات وترجماتٍ كثيرةً تناولت مختلف جوانبها، وما ينشعب منها، وكأنه رام أن يؤسس لفلسفة أخلاقية كاملة، تترعرع في حِجْر الفلسفة الأم. وقد وُفّق في تقديم نظرة جديدة فيها الكثير من أفكاره وآرائه.

ورأى من إتمام البحث في الأخلاق ضرورة تناول فلسفة القيم، وهي القاع الفلسفي المعاصر للتعمق في أوجه النظر الإنساني إلى كل ما ينهض به من أنشطة. «إن النظرة القيمية الأخلاقية ترى أن الإنسان هو صانع قَدَره بيده، وأنه يعي المعطيات، ويعي احتمالات توجيهها وحدوثها وبهذا المعنى يسهم في تغيير المستقبل، وهو بهذا المعنى أيضاً مسؤول عما يفعل».

وقد أفرد لفلسفة القيم جملة من كتبه عرض فيها ما انتهت إليه دراساته وقناعاته.

ولم يكن بدّ للدكتور عادل، وهو المؤمن بقوميته وأمته العربية، من أن يفسح مجالاً رحباً في كتبه للفكر العربي الإسلامي «وهو المحور الثقافي الأخصب في فهم حاضر أمة ماجدة، ذات آمال جسامٍ في غد إنساني عادل ومشرق» فتعمق في دراسة الفكر العربي، ونبّه على مناح لم يلتفت إليها السابقون، إذ وجد طائفة من المفكرين العرب والمسلمين عنوا بالاهتمام بالإنسان، وكونوا تياراً موصولاً أَطلق عليه الدكتور العوا اسم التيار الانتقادي يضمّ كُتّاباً وأدباء وعلماء من أمثال ابن المقفع والنظّام والجاحظ والمعري وإخوان الصفا «والواقع أن هذا التيار أقربُ إلى أن يكون سلسلة من محاولات الابتكار المتمرد الذي ينطلق من منزع العقل الإنساني المحض ليعرض على محكه نتاج الإنسان في تجربته بالوجود كل الوجود، وبالحياة على اختلاف مناحيها، وتفاوت مستوياتها، وتعدد أغراضها وأهدافها ومكاسبها».

ومن مزايا الدكتور العوا في هذا الباب إلحاحُه الشديد على تحديدِ الفكر

العربي الإسلامي، وموقعِه الرئيس من مناشط الثقافة الإنسانية، وحرصُه على دمجه في تيار نمائها الحيّ، مع عنايته البالغة بإبراز خصائص ذاك الفكر، وألوان إسهامه في مختلف الموضوعات.

وظلت هذه الفكرة رائده وموجهه في محاولته الثانية وهي «دمج البحث في الفلسفة العربية في إطار دراسة الفلسفة، وقد وضعها حيث موقعُها التاريخي والمذهبي من تسلسل الحدوس الفلسفية ومذاهب الفلسفة لدى ذكر الفلسفة الإغريقية واللاتينية وذكر الفكر المسيحي، وقبل البحث في فلسفة العصر الوسيط، وعصر النهضة والانبعاث...».

ويحسن الإشارة إلى أن الدكتور العوا كان متفائلاً، ينظر دائماً إلى المستقبل بعين الأمل الباسم. ومن أقواله:

«إنني بطبعي متفائل... وأمنيتي أن تبقى قوميتنا كما كانت قوميةً إنسانية تعتزُّ بإسهامها في تقدم حضارة البشر، هكذا كنا، فلنكن أبدا... وإن الأمة العربية تُطلُّ على مفهوم إنساني سيكتب له التوفيق، وأرى أن مقياس المذاهب الفلسفية المناسبة لوضع الأمة العربية... إنما يقدّر بنسبة صلة هذه المذاهب بمفهوم الحضارة والتعاون الإنساني».

– ٤ –

ومن تمام القول أن أذكر أن مجمع اللغة العربية كان قد سعد بانتخاب مجلس المجمع الأستاذ الدكتور العوا عضواً في المجمع، بجلسته المنعقدة في (٧/ ٥/ ١٤١١هـ – ٢٤/ ١١/ ١٩٩٠م)، وصدر المرسوم رقم ٢٠٤ في (١٤/ ١١/ ١٤١١هـ – ٢٧/ ٥/ ١٩٩١م) بتعيينه عضواً في مجمع الخالدين.

وأقيم حفل استقباله في جلسة عقدت في قاعة الأستاذ الرئيس محمد كرد علي بالمدرسة العادلية في الساعة السادسة من مساء يوم الأربعاء (٧/

٥/ ١٤١٢هـ - ١٣/ ١١/ ١٩٩١م) حضرها نخبة طيبة من رجال الفكر والأدب والثقافة، وافتتحتُ الحفل بكلمة رحبتُ فيها بالأساتذة العلماء والحفل الكريم، وشكرتُ لهم تفضلهم بالحضور، وهنأتُ الدكتور العوا بثقة زملائه المجمعيين به، واختيارهم له لينضم إلى صفوفهم، ويؤيد مسعاهم في خدمة العربية، والعناية بازدهارها. ونوّهتُ بجهوده الطيبة في ميداني التدريس والتأليف، ومشاركاته الواسعة في المؤتمرات والندوات العلمية العربية والعالمية. ثم ألقى الأستاذ الدكتور محمد زهير البابا عضو المجمع كلمته في استقبال زميله المجمعي أشاد فيها بسجاياه الحميدة ومكانته العلمية، وذكر أطرافاً من سيرته.

وألقى بعد ذلك الأستاذ الدكتور العوا كلمته التي تحدث فيها عن مكانة اللغة العربية، وأشار إلى الدعاوى التي تدّعي عجز اللغة عن مواكبة مسيرة العلم، كما أشار إلى طغيان العدوانية الشمولية على الوجود العربي، ومن هنا كانت دعاوى انتقاص الإمكانات العربية في كل مجال، ومنها مجال الثقافة والعلم والفكر والآداب والفنون. وتصدى الدكتور العوا إلى إماطة اللثام عن بعض هذا التجاهل شبه العالمي الذي يتطلع إلى أن يُسقطَ من حساب الحضارة العالمية الثقافة العربية في سالفها وحاضرها، ويسدَّ الطريق أمام تطويرها ومستقبلها، واختار الدكتور العوا لتبيين الصلات القائمة بين ثقافتنا العربية والثقافة العالمية ميدانين أساسيين: المجال الديني والمجال الفلسفي، ودلّل، بعرض شائق وأسلوب جميل، على مشاركة ثقافتنا الثقافةَ العالمية في هذين الميدانين في ماضيها وحاضرها، مما يُسقط الدعاوى الباطلة التي تكال للغتنا وثقافتنا.

ونعمنا بصحبة الدكتور العوا في المجمع إحدى عشرة سنة (١٩٩١-٢٠٠٢م)، وقد نَشِط في متابعة أعمال مجلس المجمع ولجانه وندواته إلى جانب زملائه المجمعيين، وقدّم خبرته العميقة الواسعة، وشارك في محاضرات المجمع

بمحاضرة قيّمة عنوانها «أمنية الخلود».

وكانت صلاته بزملائه المجمعيين صلات ودّ ومحبة. وكان يكنّ للمجمع كل تقدير واحترام.

* * *

خير ما أختم به كلمتي أن أشير بكل التقدير والتجلة إلى التكريم الكبير الذي أضفاه سيادة الرئيس بشار الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية على الأستاذ الدكتور عادل العوا وزميله الأستاذ الدكتور فاخر عاقل بمنحهما وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة وذلك تقديراً لإنجازاتهما في مجالي الفكر والثقافة.

(المرسوم رقم ٥٣ في ١/ ١٢/ ١٤٢٢هـ- ١٢/ ٢/ ٢٠٠٢م).

وقد تفضل الأستاذ الدكتور حسان ريشة وزير التعليم العالي فأقام، احتفاءً بالتكريم، حفلَ تقليدهما وسام الاستحقاق السوري على مدرج جامعة دمشق في تمام الساعة الثانية عشرة من يوم الأربعاء في ٢٧/ ٢/ ٢٠٠٢م. وقد اشتمل برنامج الحفل على كلمات:

ممثل سيادة رئيس الجمهورية العربية السورية، ورئيس مجمع اللغة العربية، ورئيس جامعة دمشق، ثم كلمة المحتفى بهما ألقاها الأستاذ الدكتور عادل العوا، وكانت كلمة جميلة رائعة، ثم قلدهما الدكتور حسان ريشة وزير التعليم العالي وسام الاستحقاق.

رحم الله فقيدنا الغالي، ورفعه مكاناً عليّاً، ولقّاه نَضرة وسرورا.

* * *